نذر الحرب الجديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهد معظم العواصم الأوربية منذ أشهر فترة غير عادية من النشاط السياسي ؛ وقد تحول هذا النشاط منذ مأساة مرسيليا التي ذهب ضحيتها الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ومسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية ، الى نوع من الحمى الدبلوماسية . وتلوح اليوم في أفق السياسة الأوربية سحب كثيفة تثير الجزع في كثير من العواصم والأمم . ما الذي سيعقب مأساة مرسيليا من الحوادث والتطورات سواء في يوجوسلافيا ذاتها أم في أوربا بصفة عامة ؟ وهل يكون السلم في خطر حقيق ؟ وهل نشهد اليوم مقدمات أزمة دولية مستعصية قد تفضي الى نشوب الحرب ؟ هذه الأسئلة الخطيرة تتردد اليوم في جميع دوائر السياسة العليا لا على أنها هواجس واحتمالات بعيدة الوقوع ، ولكن على أنها فروض حقيقية خطيرة يجب التحوط لها

وقد لوحظ بحق أن للجريمة السياسية شأناً كبيراً في إثارة هذه السحب التي تحلق اليوم في أفق السياسة الأوربية ؛ فمنذ أشهر قتل مسيو دوكا رئيس الوزارة الرومانية فترتبت على مقتله صعاب وأزمات مازالت رومانيا تعاني من أثرها ؛ وفي أواخر بولية الماضي قتل الهير دولفوس رئيس الحكومة النمسوية في ظروف وحشية فأثار مقتله أزمة سياسية خطيرة لا في النمسا وحدها ، ولكن في أوربا الوسطى كلها ، وذهبت إيطاليا في إجراءاتها وتحوطاتها لصون استقلال النمسا من اعتداء ألمانيا وعمالها المأجورين ، الى حشد الجنود على حدود النمسا الجنوبية ، ولاح شبح الحرب واضحاً مدى حين . ثم كان مقتل الملك اسكندر ومسيو بارتو أخيراً في مرسيليا ، فبدت الأزمة الأوربية في أروع مظاهرها ، وتجددت نذر الخطر وأحاديث الحرب . ويخشى المتشائمون أن يكون التاريخ إنما يعيد نفسه ، وأن تكون مأساة مرسيليا قرينة مأساة سيراجيفو ونظيرتها في الظروف والنتائج . والحقيقة أن مؤرخ الحرب الكبرى لا يسعه الا أن يعتبر مأساة سيراجيفو من أهم العوامل — الظاهرة على الأقل — في اثارة الحرب . فقد اتخذت امبراطورية النمسا والمجر مقتل الأرشيدوق فرنز فرديفند وقرينته في سيراجيفو في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ يد طالب صربي سياساً لاعتبار حكومة صربيا مسئولة عن الجريمة مباشرة ومطالبتها في بلاغ نهائي بطالب عدتها صربيا افتئاتاً على سيادتها ؛ وشدت ألمانيا أزر النمسا في موقفها ، ولكن روسيا تدخلت لتعضيد صربيا ضد النمسا باعتبارها حامية الشعوب السلافية . وكانت الأزمة الخطيرة التي أدت الى وقوع الحرب بعد ذلك بأسابيع قلائل

وإذا لم يمكن لجريمة مرسيليا مثل هذه النتائج السريعة الحاسمة ، فلا ريب أنها زادت الأزمة الأوربية تعقيداً وخطورة ، وكانت عاملاً جديداً عميق الأثر في زعزعة السلام الأوربي . واذا وقعت حرب جديدة في القريب العاجل ، فان جريمة مرسيليا تكون بلا ريب بين عواملها الأولى . ومن المعروف أن السياسة الأوربية كلها تقوم اليوم على تهيئة أسباب الهجوم والدفاع في الحرب القادمة ، وأنها تأخذ الطابع القديم الذي يوصف في لغة السياسة بالسلم المسلح ، أو السعي الى صون السلام بالاستعداد للحرب دائماً . ومثل هذه السياسة تخضع دائماً لأزمات الساعة ، لأنها تقوم على الأثرة والقومية المغرقة ، وليست تحدوها أية مثل إنسانية أو دولية عامة . وقد وقعت جريمة مرسيليا في وقت تجتمع فيه أوربا في معسكراتها القديمة التي حالت آثار الحرب الكبرى مدى حين دون بعثها وتكوينها . والدول التي تسيطر على مصاير السياسة الأوربية اليوم هي فرنسا وألمانيا وايطاليا وروسيا ؛ وهي التي تتجاذبها في تكوين المعسكرات الهجومية والدفاعية ؛ وفرنسا أشدها سيطرة على الموقف ونفوذاً في تطوراته ، ومقصد السياسة الفرنسية معروف هو العمل بكل الوسائل لعزل ألمانيا عن باقي الدول الأوربية حتى لا تقوى بالتحالف على مهاجمة فرنسا ، وإحاطتها بسياج من الدول الخصيمة المتأثرة بالسياسة الفرنسية حتى تبقى دائماً في موقف الأحجام والضعف ؛ وإذا وقعت حرب فان فرنسا تستطيع بمعاونة حلفائها أن تتغلب على ألمانيا . وقد سارت فرنسا في هذه السياسة الى ما قبل جريمة مرسيليا شوطاً بعيداً ، واستطاعت أن تجذب روسيا السوفيتية الى معسكرها وأن توثق سياسة التحالف الروسي الفرنسي القديم بعد أن لبثت روسيا مدى حين بعيدة عن حظيرة الدول الغربية ، وأن تتوج هذا التحالف بالعمل على ضم روسيا الى عصبة الأمم بعد أن لبثت تخاصمها منذ قيامها . وقد كانت السياسة الألمانية ما قبل الحرب تغالب التحالف الروسي الفرنسي بالتحالف الألماني النمسوي .

ولكن امبراطورية النمسا والمجر القديمة قد ذهبت وقامت على أنقاضها دول تخاصم ألمانيا أو تتأثر بالسياسة الفرنسية . والسياسة الفرنسية هي التي خلقت كتلة التحالف الصغير في أوربا الوسطى من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وهي التي توجهها في سياستها الأوربية . ولما قامت الحركة الهتلرية في ألمانيا ، وظهرت ألمانيا في صورة المهدد لفرنسا ، والمهدد للسلام الأوربي ، ضاعفت فرنسا جهودها في توثيق التحالف بينها وبين روسيا ودول التحالف الصغير خصوصاً بعد أن شعرت أن بولونيا قد أخذت تتحرر من نفوذها وتتجه نحو ألمانيا . وكان من أهم أغراضها أن تجذب يوجوسلافيا بصورة نهائية الى جانب السياسة الفرنسية لأنها شعرت أن السياسة الألمانية قد أخذت تتجه نحو يوجوسلافيا وتحاول كسبها بوسائل شتى . ولكن فرنسا رأت من جهة أخرى أن هذا التحالف لا يحقق الغاية المنشودة إلا اذا آزرته ايطاليا . وبين ايطاليا ويوجوسلافيا خصومة قديمة ، فيجب أن تذلل قبل كل شيء

لهذا كانت رحلة مسيو بارتو إلى يوجوسلافيا ، وكانت رحلة الملك اسكندر إلى فرنسا ، وكان المقرر أن تكون مفاوضات الملك اسكندر مع الحكومة الفرنسية تمهيداً لمفاوضات فرنسية إيطالية تجرى في رومة ، وتسوى فيها جميع المسائل والخصومات القائمة بين إيطاليا ويوجوسلافيا من جهة ، وبين فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى ، وكان الأفق مناسباً لتحقيق هذا البرنامج ، لأن إيطاليا كانت قد بدأت في الآونة الأخيرة تتباعد عن ألمانيا على أثر حوادث النمسا التي انتهت بمقتل الهير دلفوس ، وافتضاح نيات ألمانيا ومشاريعها نحو الاعتداء على النمسا ؛ وتم الشطر الأول من هذا البرنامج بالمفاوضات التي وقعت في بلغراد بين فرنسا ويوجوسلافيا ؛ ولكن الشطر الآخر لم يتحقق لأن الملك اسكندر ما كاد يطأ أرض فرنسا حتى سقط قتيلاً برصاص الوطنيين الكرواتيين وسقط إلى جانبه مسيو بارتو ؛ وأخرت هذه المأساة مشاريع السياسة الفرنسية إلى حين ؛ وأودت بمشاريع حكومة بلغراد ، وبعثت إلى أفق السياسة الأوربية ، ولا سيما أوربا الوسطى ، ريحاً وهواجس جديدة ، وأثارت صيحة الحرب مرة أخرى

والواقع أن مقتل الملك اسكندر كان ضربة شديدة ليوجوسلافيا ؛ وقد بينا في مقال سابق كيف أن تكوين يوجوسلافيا الجديدة من عناصر متنافرة خصيمة يعرض وحدتها للتمزق دائماً ، وكيف أن هذه الوحدة تقوم على أسس مصطنعة في ظل طغيان حديدي كان الملك اسكندر عماده وقائده ، فالآن يحدق الخطر بهذه الوحدة المغصوبة ، وتقف حكومة بلغراد حائرة متوجسة من المستقبل القريب ؛ وتقف إيطاليا أيضاً مترددة تسبر غور الاحتمالات الجديدة . هل تستمر في الاصغاء إلى عرض السياسة الفرنسية ، فتهادن يوجوسلافيا وتحالفها وتدخل في حظيرة هذا التحالف الذي يجمع دول الاتفاق الصغير ورومانيا إلى جانب فرنسا ؟ ومما يزيد في تردد إيطاليا ما تحاوله ألمانيا لديها الآن من تحويلها عن ذلك الطريق ، وإعلان استعدادها لضمان استقلال النمسا ، وتسوية المسائل الأخرى التي تهم إيطاليا ؛ بيد أن السنيور موسوليني يقف الآن وقفة المنتظر ليرى أولا ما يمكن أن تحدثه آثار جريمة مرسيليا في شئون يوجوسلافيا الداخلية ، وهل يوجد ثمة ما يحمل على الاعتقاد بقرب تفكك هذه الكتلة السلافية الخطرة التي خلقتها معاهدة الصلح ، والتي تنازع إيطاليا سيادتها في بحر الأدرياتيك ، وتهدد نفوذها في البلقان وأواسط أوربا ، وهل تقوم في يوجوسلافيا حركة انفصالية ، يقوم بها العنصر الكرواتي خصيم العنصر الصربي الذي يستأثر بالسلطة في يوجوسلافيا ، ويضطهد العناصر الأخرى ؟ فاذا آنس موسوليني شيئاً من هذه البوادر فقد يفضل أن يستبقي حريته في العمل مدى حين ؛ وعندئذ تعمل إيطاليا من جانبها على تشجيع العناصر الانفصالية في يوجوسلافيا ، حتى يتم تفكك هذه الكتلة السلافية ، وتستطيع إيطاليا أن تتجه ببصرها نحو دلماتيا التي تطمح إلى امتلاكها ، وعندئذ ينهار التحالف الصغير أيضاً ، وينفتح أمامها مجال العمل في أوربا الوسطى

على أن فرنسا تعمل من جهة أخرى بكل ما وسعت لتحقيق التفاهم والتحالف مع إيطاليا . وهي على أهبة لأن تضحي في هذا السبيل ببذل بعض المطالب التي تطمح إيطاليا إلى تحقيقها . وما تعرضه فرنسا على إيطاليا ينحصر فيما يأتي : (١) تعديل الحدود الطرابلسية من جهة تونس ، والتجاوز لايطاليا عن بعض المناطق المتاخمة لبرقة (٢) عدم مقاومة التوسع الايطالي في طرابلس من جهة الجنوب في اتجاه بحيرة تشاد (٣) عدم مقاومة مشاريع إيطاليا وأطماعها في الحبشة (٤) تسوية مسألة الرعايا الايطاليين في تونس ، ومنحهم بعض الحقوق والمزايا الخاصة ؛ فهذه عروض

ومزايا لاتستطيع إيطاليا أن تأبى قبولها ، خصوصاً إذا علمنا أن التوسع الاستعمارى قد غدا من أعظم أهداف السياسة الفاشستية .

وعلى أى حال فان برنامج السياسة الفرنسية لم يتغير بمقتل مسيو بارتو ، وقد أعلن مسيو لافال وزير الخارجية الجديد أنه سيعمل لاتمام ما بدأ به سلفه ؛ وسوف يقوم بزيارة رومة كما كان مقرراً من قبل للمفاوضة فى تحقيق البرنامج المرسوم

هذه هى خلاصة العوامل التى تسيطر الآن على مجرى السياسة الأوربية . والظاهرة الجوهرية التى تبدو خلال ذلك كله هى اشتداد التنافس فى إحياء المعسكرات الأوربية القديمة ، وإنشاء الكتل الهجومية الدفاعية التقليدية . لماذا ؟ استعداداً لحرب تلوح فى الأفق . ومازالت فرنسا هى المتفوقة فى هذا الميدان ، ولكن ألمانيا تعمل أيضاً ، رغم عزلتها السياسية على إنشاء معسكرها ، وحشد حلفائها . وقد ظفرت أخيراً بكسب بولونيا وسلخها عن كتلة الدول المتأثرة بالسياسة الفرنسية وإحداث أول ثغرة بذلك فى المعسكر الفرنسى . ولم تبأ ألمانيا بفداحة الثمن الذى دفعته لتحقيق هذه الغاية ، وهو التسليم بالممر البولونى الذى يشق أراضيها الى البحر . ومازالت ألمانيا تتمتع بشىء من العطف فى المجر ويوجوسلافيا لأنها تشترى محاصيل البلدين . ولكن ذلك لايمكن أن يعوض عليها خسارتها الفادحة بفقد معاونة روسيا ومحالفتها ؛ وقد كان إغضاب روسيا وفقدها من أعظم أخطاء ألمانيا الهتلرية ، خصوصاً وأن روسيا لم تتحول عن ألمانيا إلا لكى تتفاهم وتتحالف مع فرنسا ألد وأخطر خصومها . وروسيا السوفيتية قوة لايستهان بها

وقد يكون من المبالغة أن يقال إننا الآن على أبواب حرب قريبة ، ولكن ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد الآن نذر الحرب القادمة ومقدماتها . ومتى هذه الحرب ؟ قدتقع بعد أشهر وربما بعد أسابيع إذا تطورت الحوادث فى يوجوسلافيا فجأة ، وأفلت زمام الموقف من يد حكومة بلغراد ؛ وقد لا تقع إلا بعد عامين أو أعوام قلائل اذا بذلت جهود صادقة لاتقائها أو لتأخيرها . وعلى أى حال فليس مبالغة أن نقول إننا نشهد الآن من تطورات السياسة الأوربية أقربها وأشبهها بتلك المرحلة التى تقدمت الحرب الكبرى ، وبلغت ذروة خطورتها فى صيف سنة ١٩١٤ . والواقع أن أسباب الأزمة الأوربية الكبرى تجتمع وتتفاقم منذ عامين ؛ وأهمها بلا ريب إخفاق مشروع نزع السلاح ، والفشل الذريع الذى لقيته عصبة الأمم فى حل مختلف المشاكل الدولية ؛ وانهيار سياسة التفاهم الدولى والتحكيم التى بلغت ذروتها بعقد ميثاق تحريم الحرب ، ولم يلبث أن ظهر عقمها من الوجهة العملية ، ثم قيام الحركة الهتلرية فى ألمانيا وماجنحت اليه من سبل العنف والوعيد ، وما أثارته فى فرنسا من هواجس ومخاوف جديدة . بيد أن هذه الأسباب كلها ترجع الى أصل واحد ، هو معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) التى لم يراع فى وضعها سوى تحقيق شهوات الظافرين وأطماعهم ، ولم يقصد بها الى وضع أى سلام شريف دائم ، ولكن أريد بها تحطيم قوى الأمم المغلوبة ، وتمزيق وحدتها القومية دون مراعاة الحدود الجغرافية ووحدة العناصر وتراث التاريخ ، فجاءت كالبركان الصامت يضطرم فى خفاء ، ولكن تسرى ناره تحت الهشيم ، وغدت أعظم عامل فى إثارة الأحقاد والأطماع القومية ، وخلقت مشاكل الحدود والأقليات الشائكة فى طول أوربا وعرضها ، ومهدت الى هذه الأزمة الشاملة التى تهب ريحها اليوم على أوربا منذرة بشر العواقب

وكما أن الأزمة الدولية الكبرى التى اجتمعت أسبابها قبيل الحرب قد لقيت نذير انفجارها فى مأساة سيراجيفو ، فكذلك تلقى الأزمة الدولية الحاضرة نذيراً خطراً فى مأساة مرسيليا ، واذا كانت حكومة النمسا الأمبراطورية قد رأت يومئذ أن تحمل الحكومة الصربية تبعات هذه الجريمة الرائعة ، وأن ترتب عليها من المطالب الفادحة مآثارت له روسيا وعجل بوقوع الكارثة ، فكذلك ترى حكومة بلغراد أن تحمل الحكومة المجرية تبعة جريمة مرسيليا ، لأنها تأوى فى أرضها عدداً كبيراً من اللاجئين الكروانيين ، وتتقدم اليها بمطالب ترى فيها افتئاتاً على سيادتها ؛ وقد يكون ثمة فارق بين وقع الجريمتين فى سير الأزمة الأوربية ، ولكن الذى لاريب فيه هو أن جريمة مرسيليا من أخطر العوامل فى تفاقمها . فسلام أوربا ، وربما سلام العالم ، فى خطر لاريب فيه ، واذا تركت الأمور فى مجراها الحاضر ، ولبثت الأحقاد والأطماع القومية على حالها مطلقة العنان ، واذا لم تتضافر القوى النزيهة المخلصة لقضية السلام وتقف سداً منيعاً فى وجه هذا التيار الخطر ، فسوف نشهد فى القريب العاجل انفجار البركان المروع مرة أخرى ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى